

(٤) تجاربي في الحيسة^(٥)

بقلم الاستاذ أسعد لطفي حسن

أراد الله لابنة عمي (زوجتي رضيت أو لم أرض) أن تنمو وترعرع، وأراد الله أن يكون لها أخ جديد خفف الاهتمام بها وفتح أعين والديها للكمال، كأنه (جانب الديب من ديله)؛ فكانت أفراح وكانت حفلات لا أنسى ما جرى فيها من عوائد فاسدة ومضلات وأضاليل؛ وضع الفتى عثمان فأشرقت شمس في بيت أبيه، وفي أول يوم من مولده جاءت امرأة سوداء - وكان لمقدمها حركة غير معتادة في المنزل، وكان معها امرأتان تحملان حقيبة، فراقبت أمرهن وإذا بالمعجوز تسمى «الكدية» - وقد حضرت لتبخير المولود وتحسينه من «الأسياذ» الشياطين، وهي عجوز الزار، فباتت ليلتها وقد أنعمتنا بما أعد لها من الأطعمة والحلوى، وأخذت من كل أنواع التحية والاحترام ما أفنى طوال ساعات الليل، وما انبلج الصباح حتى أحضروا لها خرافاً وديكة فزاغ بصرها وراغ أمرها وأشارت بعدم ذبحها وتقديمها قربانا «للأسياذ»، وسرمان ما حملت مع كثير من الأرز والمسلط والسكر والوقود وأرسلت إلى بيتها، ووعدت هي بالعودة في اليوم السابع (السبوع)؛ وانصرفت وقد ابتلت يدها من تقبيل المودعين - (سأعود إلى الزار وتكباته إن شاء الله).

وفي اليوم الثالث للمولود جاء دور الشيخ حسنين فأطلق البخور وتليت القصائد، وكان يوما مشهوداً انتهى باقبال ليله بالأذكار، وإذا بجماعة تحمل الدفوف والطبول تسير أمامهم المشاعل، وهم يرقصون في الطريق وبينهم حامل المزمار والصفارة يتأيلون بشكل مزر، ويتخالعون بحال تدمي قلب المؤمن، وبعضهم - وقد استرسل شعره - أخذ يعلو وينخفض ويقفز في الهواء ويهبط؛ كل هذا أمام المسلم وغير المسلم، وقد أعد سراق قسيح، حتى إذا ما أقبلوا على الدار قابلتهم النساء بالزغاريد والرجال بالتهليل، وقد احتدوا فاشتدوا في الضرب على الدفوف والطبول وتزايدوا في العزف على المزمار والصفارة، حتى إذا كادت الأرض تميد بهم والسماء تتألم من أصحاحهم، هبطوا جميعاً وقالوا - وهم لا يفقهون ونطقوا وهم لا يعقلون وقرأوا وهم يلحنون - : «إن الله وملائكته يصلون على النبي . يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً . سبحانه ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين»، فكانوا لا يضبطون مخارج الكلمات ولا يحسنون

حركاتها، ولهم فيها طريقة خاصة في التلاوة حيث لا تظن أنهم يقرءون قرآنًا، وتعتقد أنها صيغة كلامية تعودوا أن يقولوها حيث يبدون همزة إن الله بامالة محرمة، ويمدون «سبحان ربك» بشكل غير جائز، ويختمون «العالمين» باغراق في المد، كل هذا مقبول إلا اللحن المحرم؛ وبعد ذلك يحاسبهم الله أخذوا يبدون بنقرات ونفثات يتبعها رقص وتمايل.. الخ، ما هو معلوم مما تمنعني خطة «المعرفة» أن أفرج عن صدرى منه^(١)، وقد مضى هزيع طويل من الليل وانصرفوا. وفي اليوم الرابع سافرت جدة المولود تحمله إلى (ست حبيانة) وعادت تحمل البركات، وفي اليوم الخامس سافر مع أبيه إلى (سیدی درم وربع) وعاد بالتحويطات والتعويذات! وهدوا في اليوم السادس حتى اجتمعت وفود كل من ذكرت في اليوم السابع (يوم السبوع)، وكانوا قد أعدوا «قلة» زينوها بجميع ما تملكه أمه من الخلي والجوهرات، ووضعوا مقداراً من الفول وأطلقوا البخور في كل غرف البيت، حتى إذا انبثق الفجر قامت المولدة واستحضرت هاوئنا وبدأت تنقر فيه وتلقن ذلك المسكين الأبكم نصائح الطاعة لوالديه ولأهله، ووضعته في غربال، وعملت ما استطاعت من الضلالات والوثنيات، وجاءت في الظهر الموسيقى والطبول والزمر ومدت الموائد وتغاني الأب في استحضار الله وأشهى الأطعمة، واستقبل هو وصهره ضيوفهم، وبقي القوم في حضور وانصراف حتى المساء، وقد أحضروا أشهر المطربين ومكنوا يغنون حتى مطلع الفجر والكل في فرح وسرور (كل هذا والله من مال اليتيم أسعد وأخيه). هذه الضلالات والوثنيات تجري بين أعين العقلاء وأبصارهم في كل بيت من بيوت المسلمين، وساداتنا العلماء لا يحركون ساكنًا، ولا يعملون لا تشال العقائد وصون كرامة الدين، رحماك ربى فأت أرحم الراحمين!

انقضت هذه الفترة وقد أضاعت من وقى لياليها السبع، لأنى كنت أقضى طولاً ليلي ساهراً، وأتوجه إلى المدرسة مبكراً، فلا أستقر في مكاني حتى أشعر بدوار يحرمنى لذة الاستماع إلى الدرس، وفي الظهيرة أفترش أرض المصلى وأقوم منقلاً بالنوم في أجفاني، وأحمد الله إذ كان حسن ظن المعلمين بي يدفعهم إلى الاشتاق بي، فيظنون مرضى، ويبعثون بي إلى الطبيب الذى عافاني وسمح لي بالاقطاع عن المدرسة حتى نهاية الأسبوع، غرمت من الدروس كل هذه الحقيبة، وقد اسانى أحد أصدقائى وتطوع بإرشادى إلى ما فاتنى، أحسن الله إليه.

كان في قدوم ذلك المولود بعض التخفيف عني، إذ كبرت «زينب» وعوفيت من أمر حملها، وسافر عمى مع زوجته وولديه إلى مزارعه، ووجدت الرغبة عند صهرى في الحج، وصحت عزيمته وسافر مع زوجته، وبقيت أنا وأخى نستشقق نسيم الحرية، وتمكنت من استعاضة

(١) «المعرفة» تشكر ضرة الاحتاذ الكتاب على ثقته بها، وتمتاز هذه الفقرة لثمن إلى حضرات الكتاب أنها ترحب بمنزل هذه النقودات البريئة التي بقصد منها تطهير الدين الخفيف من تلك الترهات والباطل. وليس أدل على ذلك من أن عرر «المعرفة» كتب مقالات عدة في مثل هذه الموضوعات مبنياً من انعم القوم الباطلة فليرجع إليها من شاء.

ما فاتنى ، وجاء ختام العام الدراسى فنجحت والحمد لله ، وكنت من طلاب الفرقة النهائية ، ولما عاد عمى وأهله أخبرته بذلك فأعرض عني لأنه كان مهموماً حزينا ، فأدركت الأمر وبخنت عما أصابه وإذا به خاس بولده عثمان .

عاد عثمان مع أمه وهى تبكى وتولول لأنه أصيب بترلة معوية ، فقد سلمته إلى خادمة أطعمته ولما يبلغ الحول الأول ، فأصيب بقرحة وإسهال ، فمجل أبوه بعودته لمرضه على الطبيب ، ولكنه مسكين ، إذ نفذ فيه القضاء ولم ينفع الدواء ومات عثمان ، وحمل إلى القبر وأنا أبكى سر البكاء حزناً عليه وحزناً على نفسى وأخى لما سببينا بعد ذلك ؛ وقد صحح حدسى إذ أصبحنا موضع النقمة إذ كيف لا نصاب بمرض فتموت ، وكيف يموت عثمان بعد هذه التحويطات والتألم والأحجية ؟ وأين السكدية ؟ وأين الشيخ حسنين ؟ وأين زيت ست جيانة ؟ وأين قطعة عمامة سيدى درهم وربيع ؟ ولكن الله القوى القاهر أرجع القوم إلى صوابهم ، وأظهر قدرته وأنه ذو القاهر فوق عباده لا راد لما قضى به وأراد .

عاد الحاج حسين من حجه وعلم بموت خفيده ، فكان غضوباً قاسياً شديداً ، وقد كرر أماًى « إشمعنا يا ربى الولدين دول ؟ ملولت فى عمر الاثنين ، كنت ملول فى عمر ده » ... الحاج الآيب من فريضته يقول هذا !! ولكنه معذور لجهله ... إلا أنى أذكر أنه أحضر لى « كوفية » ولاخى مثلها ، فأحرمتنا منها وجاد بهما على غيرنا .

أرجع إلى المدرسة وأبتدىء فى الدراسة وقد جد أمر واحد وهو لعب كرة القدم ، إذ كان أول وجودها بمدرسة منطلا فى سنة ١٨٩٤ ، وكنت شغوفاً بلعبها ، ولكن رابع مرة لعبتها كانت هادمة لهذه الرغبة ، إذ أصبت فى ساقى الأيسر بما أبعدنى عنها إلى الآن ، واقطعت للدرس وقد كان العام الثانى لامتحان شهادة الدراسة الابتدائية ، وكنت ناجحاً فيه ، وكنت ثالث أبناء مدرستى ، وقد كافأنى عمى بارسالى إلى مزرعته لأقضى فترة من العطلة فيها ، وكانت على شاطئ النهر ، فزودنى ببضعة قروش ، ووضعنى كاتب تجارتها فى القطار فوصلت إليها تحت رعاية الله وكنته ، وهناك قابلنى شيخ عجوز لا أدري ماذا استعطفه على ، إلا أنه قابلنى ببيكاء طويل ودمع غزير ومكث طويلاً حتى خالجنى الكدر وبدأت أبكى معه فاسترحم الحاضرون فسكت ، وبعد قليل علمت أنه من رجال والدى - أسكنه الله الجنة - ، وكانت تلك الضيعة من نرات أبى فصيرتها حيل الحاج حسين صهر عمى ملكاً لعمى ، ونزعت منا اثتراعاً ، وبطريق كلها خبث ومكر وخديعة ، ذلك أنها تركت قاحلة من غير زرع سنوات متتاليات ، فعملت سطحها الأملاح وبانت مواضع الشكوى للمجلس الحسبى واتهمت بالبوار والفساد وبيعت فى المزاد الذى رسا لاسم صهر عمى وبالأحرى فقد آلت إلى عمى سامحه الله ... دع عنك أيها القارىء ما يصيب اليتامى من هذه النواحي العامة ، وسر معى فى هذه القرية التى تجاور النيل وتتمتع بهوائه العليل ، وادرس معى حال الفلاح

عماد الثروة وأداة الغنى والسعادة وارفع صوتك معى لانصافه وإيقاظه وانتشاله من
بؤسه وشقائه .

مصر التى لا يموت فيها جائع ، والتى كلها الخير والبركة ، ومورد هوائها الفلاح ، وهو العامل
على سعادتها ؛ تتوالى عليه المعصور وتتداول الأيام ولا من ينظر بعطف واهتمام إليه ، وهو القوة
العاملة ، فلا يتساوى بالآلة الصناعية التى يعنى بأمرها ويدوم على نظافتها وتغذيتها بالزيت
والشحيم وإمدادها بمولدات الحرارة ؛ ومع الأسف الشديد أذكر أن الفلاح لا يعنى بأمره ، فقد ترك
على فطرته يعيش عيشة سيئة ، ولولا حصافته الطبيعية وقوته الفطرية لا تقرض وذهب إلى
عالم الفناء ؛ ومن أعجب الأمور اهتمام الانسان بتربية الحيوان والطيور واتخاذ التدابير والوسائل
لنموه وعدم اقراضه وابتكار الطرق الموصلة إلى تحسينه وكثرة إنتاجه ، بينما ينصرف الانصراف
المعيب عن التفكير فى أمر أخيه الفلاح والاهتمام بأمره ، مع أنه يقوم على رأسه إنشاء كل ما يراه
من إصلاح أموره ، فلا يكلف الناس مثل ما يتكافون من القوى والنفقات فى سبيل تحسين حال
الحيوان والطيور وما سوى ذلك .

الفلاح يقيم فى بيوت لا يرضاها المهتمون بالحيوانات والدواجن ، فان جل همهم لحياتها
إيجاد أمكنة تكثفها الشمس ويدخلها الهواء وتتوالى العناية بنظافتها وكنسها ورشها بالمخاليل
المطهرة حتى ينمو الطير والحيوان وهو قليل الثمن وهو ما يملك بالكملة ؛ ويعيش الفلاح فى كهوف
لا يدخلها الضوء ، ولا تصل إليها أشعة الشمس لحظاظ ، ولا يجد عليها الانسان بنظرة يرتد من
ورائها البصر وهو حسير ؛ فى تلك الكهوف تتوالد القوى المحركة لدولاب الثروة فى البلاد
والعاملة على إسعاد العباد ، حقاً إن الانسان عدو لنفسه وأنانى يحب لذاته .

كانت ضجة لها رنة فرح حين ازدان « المعرض الصناعى الزراعى المصرى لسنة ١٩٢٦ »
بانامة بيت الفلاح فيه ، وكان كمبة الأمل والرجاء فى اتجاه الهمم لا تقاذ أغلبية الأهالى مما هم
فيه ، وكان ثمة اعتقاد حسن فى التضامن القومى ، ولكنها كانت شعلة حماس وقى لم تلبث قليلا
حتى أصبحت رماداً ، وبقي الفلاح فى ما يمانيه وهو محروم من عناية أبناء وطنه بأمره وهو
دائب الكد والجهد والعمل ، والعناية الربانية تحسنه من شتى الأمراض .

ولا يفوتنى بعض الثناء على القائمين بأمر المستشفيات المتنقلة التى تقام فى الجهات ؛ ولا
أنرك الفرصة تملت دون البحث فى هذا الأمر الهام ، أمر الاستعداد للعلاج دون الاهتمام
بالوقاية ؛ ولعلى أوفق وأنجاس على أرباب الفن الحاذقين من الأطباء - وقد فاتهم تلك النقطة
الدقيقة - فان الاهتمام بإنشاء المستشفيات والعمل الجدى فى تعميمها ونشر فضلها ، قد وفر على
الفلاح ما كان يتكبده - من المشاق والمتاعب والتفقات لا تتقاله إلى المدن والعاصمة لمعالجة
نفسه أو مريضه - ما كان يتعرض فيه هذا السبيل من الضرورات التى كانت تجبره على الاستدانة

ولو أن هذا جاء متأخراً إلا أنها حسنة ، ولكن ماذا يكون بعد العلاج ، وقد عاد إلى البيثة التي سببت المرض والمعيشة التي لا تزال على حالها ؟ فلا بد من معاودة المرض مرة أخرى... لقد كان مريضاً بالبول الدموى ، وقد أنهك قواه وأضعف جسمه ، فدخل المستشفى ونال الشفاء التام ، ثم رجع إلى شرب الماء المتبرك ، فهل لا يتبدل البول الدموى بحصى في المثانة أو سواها ؟ أو ذهب إلى المستشفى ليعالج باصرته من رمد صديدي حاد ؟ وأراد الله له النجاة وارقد إلى قريته وفيها منار القبار والذباب والبعوض يحتل جوها ، فهل يأمن شر مرض آخر وغير ذلك من البلايا التي يعانيتها ذلك المسكين والزاياء التي ينوء بحملها ؛ وقد يمر بخلد أن ردم البرك والمستنقعات مما عنى بأمره جد العناية ، ولكنى لا زلت أشعر بأننى تلك القروية الساذجة ، وقد أخذت قليلاً من الماء النقي المكرر وحملت في وعائها النحاس العتيق وتركته مكشوقاً دون غطاء ، ثم بدأت في واجباتها فأخذت قليلاً منه للطبخ بواسطة «كوزها» الملقى بجواره ، ثم أعادت الكرة بذلك الكوز فعكر صفو الماء ، ولما أن أتمت عملها أخذت بقية الماء واغتسلت به وغسلت وجهها ، فهل يعصمها بعد هذا من الرمد عاصم ؟ وهل يدفع عن ولدها الذي شرب من ذلك الماء خطر الانكستوما أى مجهود ؟ هنا وهنا أيضاً يجب البحث في الوقاية من تلك الأضرار ، وليس أزم من الاهتمام بتنظيم معيشة الفلاح وبيت الفلاح وحياة الفلاح .

الفلاح على فطرته كقطعة المطاط تملك أن تسيره كما تشاء وتهوى ، فإذا أردت إصلاحه خلقياً تجده أطولع إليك من بنائك ، وإن اتجهت لتحسين حاله مالياً وضع كل قواه رهن إشارتك ، فهو صبور ذو جلد كبير على احتمال المسكاره ، فالان وقد تطورت كل المناحي الحيوية لا يصح أن يهمل أمره ويترك من غير عناية فيصبح فريسة للأمراض الاجتماعية والجسمانية . في هذا الزمن - الذي يعنى فيه بالحيوان ويشفق به حتى اجتمع بنو الانسان وأسسا جميعات الرفق بالحيوان ، وأقاموا المستشفيات لمعالجته ، ووضعوا القوانين والعقوبات الصارمة لمن يعتدى عليه ، ويقصر في الاهتمام بأمره - لم توجد في القلوب رحمة ولا رفق بالانسان ، ولم يخطر على بال بشر أن ينهض ويهيب بالناس للعناية بهذا المخلوق النافع ، حتى يشعر الانسان بالام أخيه الانسان . في القرى مؤلمات كثيرة ومخزونات حجة حيث تجد ذلك المخلوق الضعيف تتقاذفه أمواج الاستهانة فلا يستقر بسفينته على شاطئه... طول يومه يكد ولا نعيده درجة الاهتمام بالالة الحديدية التي تباع وتشترى ، ولا يجد من يدبر له أمر قوته كما يدبر للالة أمر وقودها ، ولا من يعنى بنظافته كما يعنى بالالة الصماء ، التي من عجيب أمرها ألا يقدم لها من الزيت أو الشحم إلا ما وضع على الأصول الفنية . أما الفلاح ، أما الانسان المصرى أو الثروة والقوة العاملة ، فميشه لا يسمن وعيشته مرة وحالته أسوأ حال .

الفلاح ومن غالبية الجنود المدافعون عن الوطن، القائمون بحراسة الأرواح، العاملون على استتباب الأمن والسكينة لا يفارقهم بؤسهم القديم، إذ لا يعنى بطعامهم كأفهم ليسوا كباقي جنود العالم، ولا تتحرك نحوهم عاطفة المقارنة بينهم وبين من يربط بحوارهم من الجنود الذين لا يأكلون إلا القديد، ولا يلبسون إلا الجديد، ولا ينامون إلا فوق الأسرة.

الفلاح — ومن أكثرية اليد العاملة في المتاجر والمصانع والمعامل، وفي أشق أعمال التمهيدات والمقاولات — مغبون في أجره، مظلوم في معاملته مع صلابه عضده وقوة يده، وليس من ينصفه، أو يعنى بأمره، أو يحتفل به، ويوثق بينه وبين العامل الأجنبي الذي يتناول الأجر مضاعفاً، ويعامل مكرماً محترماً، ويوثق به ولو كان جاهلاً.

ولكن الفلاح الحاج حسين صهر عمي، وزوج ابنته، لم يكن فلاح القرية، بل كان فلاح مدينة طنطا، وأمره عجيب... كان مغرمًا بالمال وجمعه، وقد ساعده حفظه، وكان يحبب القرى ويحبب منها الغلال والحبوب ليتجر فيها، فكان ربحه وفيراً جداً، فشب على حب المال، وقد ألفت بنا عسا التسيار في ضيافته، فزين إلى عمي استخدام أموالنا في تجارته، وحبب إليه مشاركتنا، واستأله لهذه الفكرة، وكان أمر الله مقدوراً، وما هي إلا ليلة حتى شاع في المدينة خبر اندلاع النيران في محل التجارة، وما هو إلا الصباح حتى بانت قاعاً صافياً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً؛ وقضى الأمر وعادت الخسارة على اليتيمين: أخى وأنا، والحمد لله فقد استنفدت المال ولم تمتد إلى العقار (السيكورتاه).

التارق كبير جداً بين فلاح القرية البسيط المستسلم لقضاء الله، وفلاح المدينة الصعب المراس، فقد استخدم قوة القسب، وحسب لنفسه ما حسب، وكان — كما بسطت من القول — أن تم له ما أراد، وصادق المجلس الحسبي على الحساب وتم المراد.

ليس في هذا شيء من العجب، وإنما هذا حال القيم: يطمع في ماله، وتوضع الخطط لا غتياه، — ولو كان في حصانة الوصاية من الأهل، وربما كانت من غيرهم أخف ضرراً، ولكن الذنب واقع على أولئك الذين يقيمونهم أوصياء ويكتفون بحسابتهم ظاهرياً، وهذه مشكلة لا يحلها إلا أن يوكل أمر القيم إلى هيئة عامة تتحمل مسؤولية ولايته، من وقت أن يموت مورثه، وتكون ذات نظام إداري تصان به حقوق الضعفاء من اليتامى.

فكرت كثيراً وجعلت عمي في تقدير مسؤولية عمي، لأنني حللت خططه وخصت تصرفاته، فرجعت أدراجي إلى علة قوية وهي « المرأة »، فإن حبه لزوجته جعله يخضع لسلطان أيها مع وجود التوارق الكبيرة بين البيئة التي نشأ فيها والحياة التي قضاها في وسطهم، ولهذا قد اضطرت لدرس الحياة الزوجية في الأوساط المصرية في الماضي والحاضر، ولا أضن على قراء « المعرفة » الغراء بما وصلت إليه من حقائق، إذ فيه عبرة وعظة. أسعد لطفى حسن